ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

سؤال الهوية بين الرؤية الستاتيكية والعالم المتغير

The question of identity between the static vision and the changing world

ا.د محمد بن علي
جامعة احمد زبانة غليزان

الإرسال: 2022/12/28 **النشر:** 2023/01/15

ملخص: الى وقت قريب كان موضوع الهوية يطرح في إطار الاشكاليات الكلاسيكية(الاصالة والمعاصرة أول ثنائية الانا والآخر). غير أنه ومع بروز موجة الاعلام الرقمي فرضت علينا التكنولوجيات الرقمية إعادة طرح سؤال الهوية في إطار ما يعرف بالواقع الإفتراضي.فإلى وقت ليس ببعيد كان تعريف الهوية والمواطنة لا يخرج عن المعاني المألوفة لغويا واصطلاحيا. ولكننا اليوم امام مفاهيم. الهوية الرقمية الافتراضية. مفاهيم لم يصمد امامها المُكَونْ الكلاسيكي للهوية. حيث اصبح الانفتاح والتعايش والاختلاف هو ماتبحث عنه المقاربات الرقمية للمسألة الهوية.

كلمات مفتاحية: الهوية، العولمة، الإنسان، حقوق الإنسان، الإعلام، الهوية الرقمية

Abstract:

The article aims to address the question of identity in the light of the variables known by the societal movement. Digital technologies have forced us to re-ask the question of identity in the context of what is known as virtual reality.

Until recently, the definition of identity and citizenship did not deviate from linguistic and terminological meanings, but today we are facing concepts. Virtual digital identity. Concepts that the classic component of identity did not stand up to. Where openness, coexistence, and difference have become what digital approaches to the issue of identity are looking for.

key words: *Identity, globalization, human, human rights* , media,dijital identity

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

مقدمة:

في زمن العولمة الذي اختزل عالمنا إلى قرية صغيرة، (بالمفهوم الجغرافي)، لم يعد يسمع إلا صوت القوي، الذي يحاول – غير مكترث –أن يجعل من وجوه الآخرين نسخا مكررة من وجهه، وأن يصبغ فكر الآخرين بفكر، ويفرض قيمه ونمط حياته على من حوله، مستخدما مساحيق الديمقراطية وحقوق الإنسان، ليخفي وجهه الحقيقي القائم على الاستبداد، وحب السيطرة ومشروعه الرامي إلى الهيمنة العسكرية، والاقتصادية والقيمية.

إن المشهد العالمي يبرز لنا اليوم وبوضوح، أن ظاهرة العولمة أصبحت حقيقية لا مراء فيها، من حيث توحد السوق العالمية وأنظمة الاتصال، في مقابل تقلص دور الدولة الفعلي في المسارات الاقتصادية، وفي حركية المجتمع ،وغدت مساهماتها ضيقة، إزاء تحديات كونية وإقليمية.

ولكن وعلى الرغم من تعدد وجوه العولمة وملامحها المتقاربة ،فإن الوجه الثقافي يظل الأكثر طرحا، لا لسبب إلا لكونه يعني اعتبار قيم الثقافة الغربية، بمثابة المعايير الوحيدة المقبولة للتعامل الدولي، وبالتالي تشكل العولمة نمطية أحادية ثقافية ،قوامها دعوة الدول الضعيفة للتخلي عن قيمها المميزة، وهذا في حد ذاته ضرب لمنظومات القيم الثقافية لهذه الدول، ومحاولة واضحة لزعزعة أركانها، تمهيدا لاستبدالها ولو جزئيا بمكونات جديدة في إطار نمط ثقافي معولم، تنتفي معه الخصوصيات والهويات المميزة لكل أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب.

إن الواقع الذي نعيشه اليوم، يتطلب منا أجوبة لأسئلة ملحة، أسئلة ينبغي من البدء طرحها طرحا منهجيا، من منطلق أن ثقافة السؤال، هي الشرط الأساس لمعرفة الواقع بكل ديناميكيته ومتغيراته المتلاحقة، ولعلنا اليوم لا نجد بدا من طرح سؤال نعيد به ترتيب واقعنا وموقعنا، إنه سؤال الهوية في زمن التغير، زمن العولمة الجارفة كيف لنا أن نحافظ على تميزنا من جهة ونعاصر واقعنا من جهة أخرى ؟ كيف نعرف مصطلح الهوية ؟ وما هي ضماناتها ؟

مفاهيم الدراسة:

مفهوم الهوية:

لا تحتمل الهوية معنا واحداً مقررا- هو معناها الأرسطي- وإنما تحتمل معنا ثانياً على الأقل يُجافي الأول ويقابل مسلماته. وإن شئنا الدقة أكثر، قلنا إنه لابد من اصطناع مفهوم جديد لها، بفكها من قيود النظرة الميتا تاريخية الأرسطية- كما يشير الى ذلك عبد الإله بلقزيز، في مقاله: نحو مراجعة لتحديد مفهوم الهوية- ويبعث في معناها دلالات تاريخية جديدة تطابق

حركتها في الواقع الموضوعي. وغني عن التأكيد أن اصطناع ذلك المفهوم ليس خلقا من عدم، وإنما هو إعادة بناء معنى الهوية عن طريق الاستعانة بمكتسبات المنطق الجدلي والفكر التاريخي، ومسلمات المنطق الصوري. إن هوية شيء ما، هي ما يتحدد به ذلك الشيء، ويُعْرف، ويتميز عن غيره من الأشياء أو الموضوعات أو الأجسام، فليس من مقتضيات هذا التعريف بالضرورة أن يكون ما يتحدد به الشيء جوهراً ثابتاً لا يتغير، فالأشياء في كينونتها إنما تخضع للتطور والتحول والتراكم، المفضي إلى التجدد المستمر في مكونات الشخصية.

لا يخرج مفهوم الهوية في دلالاته عن ما قاله ابن حزم:" هو أن كل ما لم يكن غير الشيء، فهو هو بعينه،إذ ليس بين الهوية والغيرية وسيط يعقلها أحد البتة، فما خرج عن أحدهما دخل في الآخر"(ابن حزم،(د.ت)). وهذا تقريبا ما نجده في المعجم الفلسفي من حيث أن الهوية هي "حقيقة الشئ من حيث تميزه عن غيره"(مدكور،إ،207،1993). وفي المعجم الوسيط:"الهوية حقيقة الشيء أو الشخص، التي تميّزه عن غيره، وهي أيضا بطاقة يثبت فيها اسم الشخص وجنسيته وعمله ومولده. وتسمى البطاقة الشخصية أيضا(النكري،964،1997)، بينما حاول الدكتور محمد عمارة أن يقدم تصورا شاملا لمفهوم الهوية،لغة واصطلاحا، فقال في هذا الصدد: إن الهُوية بضم الهاء، مصطلح استعمله العرب والمسلمون القدماء، وهو منسوب إلى " هو". وهذه النسبة تشير إلى ما يحمله من مضمون، فهي تعني كما يقول الجرجاني في كتاب (التعريفات):" الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق،اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق". أما معاجمنا الحديثة، فإنها لم تخرج عن هذا المضمون عندما قالت عن الهوية، أنها حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة، إذا ظل هذا الشخص ذاتا واحدة رغم التغيرات التي تطرأ عليه في مختلف أوقات وجوده. ومن هنا يظهر أن مفهوم الهوية لا يمكن ادراكه إلاّ بوجود ضده وهو مفهوم المغايرة والاختلاف والتميّز. علما أن الهوية وإن كانت من الناحية البيولوجية معطى تام ونهائي، موجود مع ولادة الشخص، فإنها من الناحية الثقافية تعبر عن بناء وتشكّل، فلا يمكن تصور وجود هوية لشخص ما، بمعزل عن معطيات التاريخ والدين واللغة، التي ينشأ في ظلها هذا الشخص. ومن هنا صار الحديث عن مكونات الأمة ينزع الى تحديد العوامل السابقة الذكر ،كعناصر فاعلة في تكوين هوية أفراد أمة من الامم.

من الناحية الإجرائية نقول: إن الهوية الحضارية لأمة من الأمم، هي القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامة، التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات والتي تجعل للشخصية القومية طابعا تتميز به عن الشخصيات القومية الأخرى(عمارة، م، 35،1997).

بعيدا عن التصور اللغوي ،الذي غلب على استعمال المفهوم في علوم اللغة والفقه، نجد أن مفهوم الهوية بدأ شيئا فشيئا ينصرف إلى مضامين أخرى ارتبطت بمعناه الثقافي، وجعلته يدل على العناصر المميزة لجماعة عن أخرى، من خلال جملة العوامل الثابتة فيها. مع بداية الستينات انتشر المفهوم، وتوسع استخدامه بسرعة حتى صار من الصعب تحديد المعنى الدقيق له، وهذا نتيجة للصراع الدولي منذ ذلك التاريخ.

مجال الدراسات الاجتماعية والتاريخية ظهر مفهوم الهوية من خلال دراسات عالم الإجماع والتاريخ الألماني " فلهام دلتاي" (1833-1911)،في حين نظر إليه ماكس فيبر (1864-1920) على مستويين: يتعلق أولهما بالصورة الكونية التي تؤلف الكتلة الأساسية للمعقدات والمسلمات الافتراضية عن العالم الحقيقي والواقعي التي يمكننا في ضوئها الوصول إلى معرفة حقيقية الكون والوجود. أما السياق الثاني، فيتعلق بالمستوى الواقعي الواعي الذي يميز الذات ضمن العالم الواقعي، من النواحي الثقافية والجماعية والأخلاقية.

إن ما استعرضناه من مقاربات حول مفهوم الهوية يدل على غنى المفهوم وثرائه وصعوبة حصره لكن ما يثير التساؤل هو كيف تتشكل الهوية؟ وما هي العوامل التي تسهم في هذا التشكيل؟

عناصر الهوية:

لقد عرض المفكرون لهذه المسألة، وحاول كل أن يحصى العوامل التي تشكل الهويات، فالمفكر القومي ساطع الحصري 1879-1968 مثلا، يعتبر أن التاريخ هو العامل الرئيس لتشكيل الهوية(القومية)، ومن أهم عوامل الأمل، ودوافع الإيمان بالمستقبل، وذلك لأن المرء عندما يجد في ماضي أمته كثيرا من الصفحات المجيدة، يزداد إيمانا بإمكانية استعادة ذلك المجد، ويشتد اندفاعا للعمل في هذا السبيل. وفي مقابل ذلك يقلل من شأن دور البيئة الجغرافية،في تحديد هوية أمة من الأمم، فما من أمة من الأمم يمكن أن تعتبر وليدة بيئة طبيعية واحدة، وقلما انحصرت حياة أمة من الأمم في نطاق بيئة معينة".

في المقابل يرى(بعض)علماء الإجماع أن اللغة هي أقدم تجليات الهوية لدى الجماعات البشرية، فاللغة حقيقة ظاهرة تعبر عن تنظيم اجتماعي لمجتمع معين. وهو الرأي الذي ذهب إليه الفلاسفة الألمان، من أمثال هاردر وفيخته أن: قلب الشعب إنما ينبض في لغة الشعب، وروح الشعب تكمن في لغة أسلافه، وهي الوعاء الذي أستودعه الشعب، كل ما أنجزه من نفائس الفكر وذخائر الأعراف والفلسفات والعقائد". أما فيخته فيقول:" إن اللذين يتكلمون بلغة واحدة، يشكلون كيانا واحدا متكاملا، ربطته الطبيعة بروابط متينة وإن تكن غير مرئية

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

".نشير إلى أن الآراء التي قيلت حول أهمية مقوم عن آخر ،لا ينفي أن هذه المقومات تتناوب في كثير من الأحيان في الظهور، فالمقوم يظهر ويغيب حسب الحاجة والظروف.

مفهوم العولمة :

العولمة في معناها اللغوي تعميم الشئ وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله، وهي تعني الآن في المجال السياسي منظورًا إليه من زاوية الجغرافية "الجيوبولتيك" العمل على تعميم نمط حضاري يخص بلدًا بعينه -الولايات المتحدة الأمريكية تحديدا- على بلدان العالم أجمع، ليست العولمة بمجرد آلية من آليات التطور التلقائي للنظام الرأسمالي بل إنها أيضا وبالدرجة الأولى دعوة إلى تبني نموذج معين، وبعبارة أخرى فالعولمة إلى جانب أنها تعكس مظهرًا أساسيًا من مظاهر التطور الحضاري الذي يعيشه عصرنا، هي أيضا إيديولوجيا تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته(الجابري، ع،30،2009). يتمفصل مفهوم العولمة في مستويات ثلاثة متداخلة هي: الاقتصاد والسياسة والثقافة.

أما في المجال الاقتصاد، فالعولمة هي الاقتصاديات العالمية المفتوحة على بعضها وهي أيديولوجيا ومفاهيم الليبرالية الجديدة التي تدعو الى تعميم ا لاقتصاد والتبادل الحر كنموذج مرجعي، والى قيم المنافسة والإنتاجية، وفي السياسة هي الدعوة إلى اعتماد الديمقراطية والليبرالية السياسية وحقوق الإنسان والحريات الفردية(عتريسي،ط،1998،48)

تشير العولمة من خلال ظاهر المصطلح إلى اتجاه يرتبط بالقضايا العالمية، خاصة في بعديه الاقتصادي والإعلامي، وما لذلك من تأثير على البنيات الفكرية والثقافية، فتحطم الحدود وتقلص المسافات، ليعيش الجميع في قرية واحدة، حسب تصور مراكز النفوذ الاقتصادي العالمي، التي تريد ولادة ثقافية من رحم المصانع. وقد انعكست تلك الفكرة على أغلب التعريفات التي تشير إلى أن العولمة: "عملية يتم بمقتضاها إلغاء الحواجز بين الدول والشعوب، فتنتقل فيها المجتمعات من حالة الفرقة إلى حالة الاقتراب والتوحد. ومن حالة الصراع إلى حالة التوافق. ومن حالة التباين والتمايز إلى حالة التجانس والتماثل....فيتشكل وعي عالمي، وقيم موحدة، تقوم على مواثيق إنسانية عامة((بن علي، مج. 2014، ص ص 168-185.).

إلاّ أن هذا التعريف كشف عن مسألة خطيرة، مفادها أن العولمة في جوهرها، عملية تمركز، حيث يَعْتبرُ مجتمع ما أو ثقافة ما، نفسه مركز العالم والباقي تبع له. هذه المركزية نتاج إيديولوجيات، التميز والتفرقة بين الناس، وتصنيفهم تبعا لمستوى تقدمهم، حسب سلم التقدم الغربي (بن علي، مج. 2014).

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

سؤال الهوية في الفكر العربي:

لم يبرز سؤال الهوية في الفكر العربي الإسلامي إلا مع بروز توأمه- سؤال النهضة- حتى وإن كان هذا الأخير الأسبق ظهورا نوعا ما، كونه ظهر مع بداية الحملة الفرنسية على مصر، ولم يغادرنا بمغادرتها إلى يومنا هذا.

طرح سؤال الهوية تزامنا مع بروز تيار فكري نادى بتمثُّل قيم الحداثة الفرنسية كمخرج من مأزق التخلف، خاصة بعد التفوق الواضح، الذي سجلته الحضارة الفرنسية وصدَّرته مع موجاتها الاستعمارية، الأمر الذي ولَّد سؤال الهوية كمرادف للخصوصية، ذلك لأن الهوية هي بمثابة الشفرة التي يمكن للفرد عن طريقها أن يتعرف على الآخرين، باعتباره منتميا إلى هذه الحضارة أو تلك.

غالبا ما يؤرخ للحركة الفكرية العربية، بالقرن 19،إذ في هذا القرن بدأ العالم العربي – خصوصا مصر- بالتفتح على الغرب والتعرف على ما وصل إليه من رقي وتقدم، فمنذ ذلك التاريخ، بدأت تعقد المقارنات وتطرح أسئلة التقدم والتخلف، بعبارة أخرى، إنه تاريخ البداية لعمليات من القلق والمعاناة، ومحاولات من الخطأ والصواب، وحركات ثورية وأخرى إصلاحية ،محاولة لتجاوز عصر الركود الذي ساد العالم الإسلامي منذ نهاية القرن 13 عشر تقريبا

انتقلت أفكار عصر التنوير الأوروبي إلى الفكر العربي الحديث عبر العديد من القنوات ولعل أهمها إرساليات التبشير المسيحي، التي كانت تأتي من أوربا للأقليات المسيحية، كما أسهمت حركة التجارة بين أوروبا العالم العربي في نقل مبادئ ومفاهيم الحضارة الغربية الحديثة، هذا بالإضافة إلى البعثات العلمية التي أرسلها كل من محمد علي وأحمد باك إلى أوربا، في ظل هذا الاتصال المباشر بين الشرق والغرب، واكتشافنا للهوة السحيقة بيننا وبينه، بدأت تطفوا إلى السطح أسئلة من قبيل مالسبيل للحاق بالركب؟ هل نقبل على ثقافة الغرب أم نرفضها؟

من هذه الأسئلة، ومن منطلق القلق الوجودي، برز سؤال الهوية في لحظة نموذجية لتفاعل الاستلاب، كقوة نابعة من النسق الأوروبي. في مقابل القابلية للاستلاب كحالة يعيشها العالم العربي، من هنا ظهر التخبط والتململ، وبرزت لعالم الوجود ثنائية الذات(النحن) والغير، ثنائية سوف تحمل معها وإلى يومنا هذا إشكالية مستعصية عن الحل، ألا وهي إشكالية الأصالة والمعاصرة، أو بالأحرى صراع فكري بين تيارين يرى كل منهما أنه على صواب. تيار يدعو إلى التخلي عن قيم الذات وتقمص قيم الآخر، وتطوير الذات طبقا لمعاييره. بينما رأى أنصار تيار المنافس أن هذه الخطوة تمثل تهديدا صريحا لهويتنا وقيمنا، وبالتالي دعا إلى المحافظة على الذات ومقومتها.

يمثل التيار الأول وبامتياز سلامة موسى الذي تأثر تأثرا شديدا بالغرب، الأمر الذي جعله ينفر من هويته، ففي كتابه (اليوم والغد) يقول: فإني كلما ازدادت معرفتي بالشرق، زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوربا، زاد حبي لها وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها، هذا هو مذهبي الذي أعمل له طوال حياتي سرا وجهرا، فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب"(سلامة، م،1946،7).

لقد أدّ الشعور بالهزيمة الحضارية، إلى حالة استلاب أمام الثقافة الأوروبية، وقد ساعد على ذلك ودعّمه انبهار النخبة المثقفة بالنمط الأوروبي، (بن علي، م،2014، 113،90)واعتبارهم إياه النسق الأعلى والأرقى ولعل تحليل مؤلف رفاعة الطهطاوي " تخليص الإبريز"، يبيّن مدى الانبهار بالثقافة الأوروبية ، وهنا نستشهد ببيت شعري يقول فيه:

من لم يرى الروم ولا أهلها ما عرف الدنيا ولا النّاس

في حين يرى دعاة المحافظة على دعائم الأصالة، أنه لا نهضة دون الرجوع للأصل، فهوية المسلمين قوامها الدين، وما تأخرهم إلاّ نتيجة حتمية لتخليهم عن الدين، تتضح هذه الفكرة أكثر عندما نستعرض، محاورات الشيخ محمد عبده وفرح أنطوان، التي يؤكد من خلالها أن :"طبيعة الإسلام تأبى اضطهاد العلم، بمعناه الحقيقي، فلم يقع من المسلمون الأوائل تعذيب، ولا إحراق ولا شنق لحمله العلوم الكونية، ومقومي العقول البشرية"(عبده،م،1987، 137).

إن هذه الإشكالية، التي تطرقنا إليها على عجل شكلت في صميمها جدلا عميقا، انصرف من خلاله الجهد إلى الجدل العقيم، الذي لم يستطيع معه الفكر العربي إعطاء مضمون محدد لمشروعه النهضوي، فلقد بقي هذا الخطاب يستقي تحديداته للنهضة المنشودة- لا من الواقع وحركيته وآفاق تغيره، أو من اتجاه تطور الإحساس بالفارق(بن علي، م،2014،107) إحساس الوعي العربي بالمسافة، بين واقع الانحطاط في حياتنا المعاشة، وواقع التقدم في العالم الأوربي، وعليه لم يستطيع هذا الخطاب التقدم ولو خطوة واحدة، على جميع الأصعدة وظل يتأرجح بين نموذجين متصارعين، لم يستطيعا دفع عجلة التطور، لأن هذه الإشكالية (الأصالة والمعاصرة)، ينبغي التعامل معها على أنها بمثابة الدائرة، مركزها الهوية ومحيطها متطلبات الواقع.

من الجلي أن مركز الأمة لا يمكن إلغاؤه، لأن ذلك يعني إلغاء هوية الأمة، ونفي وجودها وإنما ينبغي دائما توسيع محيط الدائرة من خلال التلاقح والتفاعل مع الآخر، ومع مرور الزمن تتوسع الدائرة، مع بقاء مركزها(الهوية)، ثابت عندها تختفي ثنائية الأصالة والمعاصرة ويصبحان وجهان لعملة واحدة، ينبغي أن يتفاعلا لتحقيق النهضة وفرض الوجود.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

الهوية بين الثبات والتغير :

إن ما يستحق النقاش اليوم، هو مفهوم الهوية في وضعيته الديناميكية وليس في منظوره الستاتيكي الثابت فمن غير المعقول أن نساءل أنفسنا اليوم أسئلة لا فائدة من وراء أجوبتها كأن نقول لماذا تأخرنا ولماذا تقدم غيرنا ؟ هل نقبل علوم الآخر أم نرفضها ؟

إن موضوع الهوية، أصبح يستلزم طرحا جديدا، نظرا لتغير المشهد الثقافي والسياسي، بما أفضى إلى انقلاب في سلم الأولويات، فالمتعارف عليه لم يبقى كذلك، فقد كان من البديهي أن الهوية، ترتكز على أركان تاريخية، كالدين واللغة والتاريخ ... الخ، لكن مع ظهور التيارات الفكرية والسياسية المعاصرة أصبحت الأبعاد الثابتة، لا تشكل مشكلا في تراكمها، بل المشكلة في فاعليتها وديناميكيتها، خاصة مع تنامي الفكر الليبرالي الذي أعلى من شأن النزعة الفردية،التي ألهت الفرد، وجعلته لا يبالي بمسألة الهوية والانتماء بقدر ما يبالي بإشباع رغباته.

إن سؤال الهوية، يجب أن يطرح في ظل نقد المشروع الثقافي الغربي، القائم على فكرة الكونية الثقافية والمعرفية من جهة، ونقد آلياتنا ومشاريعنا الحضارية، من جهة ثانية.

إن هذه المراجعات ليست تعبير عن نقص في تراثنا أو تشوّها في هويتنا، بل علينا أن نراجع أنفسنا حتى نُلمْ بالمتغيرات الجديدة، فالنموذج الغربي اليوم أصبح يصّدر صورا جديدة، من أنماط الهيمنة، حيث تلعب وسائل الإعلام ومخابر البحث دورها في الانتصار لهذا المشروع ، هكذا فمواجهة التحديات لا تكون بالهروب والانكفاء إلى الوراء أو باستبدال هيمنة بأخرى مغايرة، فهذا الأمر لن يوّلد إلا مزيدا من التراجع، والاحتقار والتبعية.

سؤال الهوية في زمن العولمة :

تبدو العولمة ظاهرة قديمة، نظرا لنزوع الإنسان منذ القديم إلى تقليص المسافات التي تفصله عن غيره ، لإشباع حاجياته المادية والمعنوية، لكنها زادت مع الكشوف الجغرافية والموجات الاستعمارية.

من حيث المعنى الاصطلاحي، تعني كلمة عولمة جعل الشيء على مستوى عالمي ،أي نقله إلى من مجال المراقبة ،إلى مجال ينأى عن كل سيطرة ، الأمر الذي يجعل الدول القومية في خطر محدق ،سواء تعلق الأمر بالاقتصاد، أو السياسة أو القيم.

نستطيع أن نستنتج من البداية، أن هذه الفكرة ترمي إلى فرض سيطرة نموذج معين، على البقية، وما دام النموذج الأمريكي هو المهيمن اليوم، فالعولمة ما هي إلا توسيع لهذا النموذج.

صحيح أن الحضارة الغربية اليوم، هي إحدى أكبر المغامرات في تاريخ الإنسانية، فمساهمتها في بلورة النماذج المعرفية العلمية مهمة جدا وغير مسبوقة، غير أن تعميم النموذج الغربي،

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

بصورة مطلقة على مجتمعات لا تقاسمه نفس المرجعية أمر في غاية الخطورة، وهنا نشير إلى عالمنا العربي الذي لم يتخلص بعد من بقايا الاستعمار، ولم يكمل مشروعه التحرري بعد فكيف والحال هكذا نحمي هويتنا؟

ظهر مفهوم العولمة أول ما ظهر، في المجال الاقتصادي للتعبير عن ظاهرة اتساع مجال الإنتاج والتجارة، ليشمل السوق العالمية، سوق يسيطر عليها ما لا يزيد عن 15 عشر شركة عالمية متكتلة، بهذا القدر أو ذاك، مشكلة الفاعل الحقيقي في عالم العولمة، لكن العولمة لا تقف عند هذا الحد، بل تهدف من خلال أفكارها إلى ربط الأفراد بأشياء، تقع خارج التاريخ وخارج الوطن، باسم ثقافة الانفتاح أو ثقافة التعدد والاختلاف.

للعولمة في سياقها الراهن تأثير في الهوية الثقافية العربية الإسلامية يكمن في سعي دوائر في الغرب - بخاصة عقب انتهاء الحرب الباردة - لفرض نماذج ومعايير بعينها، باعتبارها صالحة - بل هي الوحيدة الصالحة - على المستوى الدولي، وقد أدركت بعض الدوائر في الغرب، منذ فترة أن محاولة فرض نموذج تشريعي، أو سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي، بشكل مباشر على الشعوب العربية والإسلامية، هي محاولة محكوم عليها بالفشل، نظراً لأن الثقافة الوطنية، تشكل قلاعاً صلبة الجذور لمقاومة هذه المحاولة، وبالتالي انتقلت هذه الدوائر إلى نشر الثقافة التي نبعت منها تلك النماذج ،بحيث تكتسب هذه الثقافة بنظامها القيمي وتقاليدها أرضية واسعة، بما يسمح بضمان وجود قاعدة قوية، تساند - بل وتطالب - بتطبيق النماذج والمعايير الغربية- التي هي نتاج للإطار التاريخي لتطور الثقافة والحضارة الغربيتين- في بلدانها، ولا يعني ما سبق القول بأن كل ما في الغرب شر وكل ما في الشرق خير، ولكن العنصر الحاسم هنا، هو إذا كان ما يحرك أطرافاً غربية، عند سعيها لإيجاد التربة الخصبة لزرع نماذج ومؤسسات وليدة للثقافة الغربية، هو لمصلحة غير الغربيين أم تحقيق مصالح هذه الدوائر الغربية، كما أن تلك الدوائر تولدت لديها قناعة بأنه ما دام الغرب هو الأكثر تقدماً، فإن هذا يعني بالضرورة تفوق ثقافته، ما يستدعي التعامل معها باعتبارها "الثقافة العالمية"، وليست مجرد ثقافة واحدة، ضمن تعددية ثقافية،قائمة على الأخوة والعدالة والمساواة.

إن الخطاب الذي يقدم العولمة، يصوّرها على أنها عملية تحرر من سيطرة الدولة القومية، إلى أفق الإنسانية الواسع، تحرر من نظام التخطيط إلى فضاء السوق الحر، التحرر من الولاءات لثقافة محلية ضيقة متعصبة، إلى رحاب ثقافة عالمية واحدة، يتساوى فيها الناس جميعا، تحرر من التعصب الإيديولوجي إلى فضاء الانفتاح على مختلف الأفكار دون قيد أو شرط، التحرر من كل صور اللاعقلانية الناتجة عن التمييز المسبق لأمة أو دين.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

لا تعترف العولمة بالمجتمعات الوطنية، على النمط التقليدي المألوف، وإنّما تعترف بالمجتمع الإنساني المفتوح وبمعزل عن حدود الجغرافيا، وقيود الثقافة والدين، أوالولاءات الوطنية، بمعنى دقيق تأسيس جديد لمفهوم الهوية، والثقافة والانتماء الوطني، بل (تأليف) دين جديد، يستجيب لخيارات ومشاريع من يقف وراء منظومة العولمة، والعولمة بما أنها خيار الشركات عابرة القارات، والتي تتجاوز ميزانية الواحدة منها، ميزانيات عدة دول عربية مجتمعة، فإن هذه الشركات تبحث عن أفواه مفتوحة تنتظر الأكل، بل تعمل على صياغة عقول أصحاب هذه الأفواه بما يضمن ارتباطها الدائم ببضاعتها، فتشكل بذلك وعيهم، وتؤسس ثقافتهم وتحدد وقتهم، في الأكل والملبس والمصطلحات والاهتمامات...وكذا روابطهم الأسرية والاجتماعية، فهي باختصار تضع لهم تصورا جديدا للحياة.

هكذا تصور العولمة صورة في ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب، إنها اختراق للهوية وتمييع لها وسعي لإقصاء الخصوصيات القومية.لكن ما السبيل لمجابهة هذا التيار الجارف؟

الهوية من المفهوم الكلاسيكي الى العالم الإفتراضي:

إذا تجاوزنا الطرح الذي يشير الى محاولة ضبط الهوية الرقمية على أساس أنها تشير الى جملة البيانات أو المعرّفات التي يتميز بها فرد عن آخر على مستوى بياناته الرقمية(بطاقة الهوية، رخصة السياقة، بطاقة الإئتمان...الخ). واشتغلنا على الأبعاد الفلسفية لمفهوم الفضاء الافتراضي، الذي أتاح للهويات المتعددة إمكانية اللقاء على مستوى شبكات افتراضية، أتاحت للذوات امكانية التذاوت المنفلت من الرقابة بكل اشكالها، الاجتماعية والثقافية والسياسية، لتجد الذات متنفسا تتمظهر به أمام الآخر (الهوية الافتراضية المقابلة لنا). أين أصبح بمقدوها ان تصبح هوية تحمل سمات تختلف اختلافا جذريا عماّ كان يحددها سابقا.

لقد اتاح الاعلام الجديد- بما هو اعلام رقمي تفاعلي- للهوية الرقمية معالم مغايرة للمألوف، معالم تتميز بالمرونة والانفلات من التحيّز(الحيز)،وهذا ما يمكن أن نعبر عنه بالقول أن الهوية الرقمية أصبحت تطرح في اطار مبدأ الكونية الذي يجعل من سؤال الهوية يطرح في اطار متلازم مع حضور الاخر المختلف، والذي أصبح شرطا ضروريا لوجود الذات، ومن هنا أصبحنا أمام ما أشار اليه "هابرماس" من أن انفتاح الهُوية خيارا ضروريا يؤّمن لها التواصل، ضمن إطار التنوع والاختلاف.

من الواضح أن طرح سؤال الهوية في السياقات المعاصرة(فلسفيا واجتماعيا وسياسيا) كان وليد أزمة افرزتها منجزات الحداثة وما بعد الحداثة. أزمة اصبح معها الوجود المتنافر للفرد الأوربي يسيطر على المشهد، في صورة تعبر عن تهديد حقيقي لمشروع المجتمع الديموقراطي

الليبيرالي، الذي يؤسس لثقافة الاحتواء(احتواء المختلف المتنافر، احتواء الثقافات المحلية، والهويات الجماعاتية....الخ) حتى يستطيع تحقيق التوافقات الرامية لاستمرار التعايش. ضمن توافقات مبنية على الاعتراف المتبادل وانصهار الاجزاء في الكل. في اطار فكرة المواطنة المتعددة الثقافات.

في هذا المسعى لم يجد منظروآ الفلسفة الجديدة أفضل من وسائط الاعلام الجديد التي تغذّي المجال العام بفاعلية النقاش والحوار لقضايا الشأن العام، وذلك ما سيكفل حلول وسطى مبنية على أسس عقلانية ملبية لمصالح الجميع. بواسطة جعل الهوية العرقية أو الجماعاتية تحت سلطة القانون. ومن هنا لم تعد في حيّز الوجود الأبعاد الكلاسيكية التي تتحدد في إطارها هوية أمة من الأمم، فاللغة والدين والتاريخ والمصير...الخ أصبحت حقوق ثقافية مكفولة دستوريا للجميع داخل النسيج السياسي تجنبا للنزاع الثقافي.

خاتمة:

ما نخلص اليه هو اننا اصبحنا نبتعد كليا او جزئيا عن الطرح الكلاسيكي الذي عولجت من خلاله مسألة الهوية، ليحل محلّه مفهوم الهويّة الرقمية في ظل تنامي الشبكات الاجتماعية التي نالت اهتمام الشباب بشكل خاص، بفعل تلاشي الحدود والقيود. كما سمحت المواقع الاجتماعية للأفراد بالانضمام إليها وتكوين ملفات شخصية تمكنهم من التعارف والتواصل، والتعريف بذواتهم وإمكانية تعزيز المكانة والعلاقات الاجتماعية(كريملي،هـ،77،2022). وبالموازاة مع هذا المنزع الانفتاحي الذي أصبحت معه شبكات التواصل الاجتماعي تمثل عصرا جديدا يتميز بالانفتاح وتسهيل التواصل والاتصال بكل أشكاله، وفضاء للنقاش والحوار والتفاعل حول العديد من المواضيع، ومن هنا برز لحيّز التداول مفهوم الهوية الرقمية، بديلا للمفهوم الكلاسيكي، مفهوم تداخلت من خلاله الأبعاد المشَكلَة للهوية في العالم الافتراضي والتي تؤثّر على هويّة الشباب الواقعية، مما صعب عليهم الفصل والتميّز بين العالم الاجتماعي الواقعي والعالم الافتراضي الرقمي. ومن هنا نقول إن بناء واقعنا على أساس سليم هو الخيار الوحيد القادر على مواجهة التحديات ومقاومة الهواجس التي يفرضها الانفتاح الإعلامي والتقنية الحديثة.

إن إشاعة ثقافة السؤال والنقد أمر يساعد على إعادة ترتيب المعطيات والمنجزات المحققة ويمكن من جهة أخرى من محاصرة ما يضر تماسك البنيان الاجتماعي

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

مراجع البحث:

1. ابن حزم.(د.ت) الفصل بين الملل والنحل، ج،1 تح. محمد سيد كيلاني،بيروت: دار صادر.
2. مدكور، ابراهيم(1993). المعجم الفلسفي، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية.
3. النكري.(1997). موسوعة جامع العلوم:(الملقب بدستور العلماء)تحرير، على دحدوح وآخرون تر، عبد الله الخالدي ،بيروت: مكتبة لبنان
4. عمارة، محمد.(1997). الهوية الحضارية، مجلة الهلال،عدد فبراير، القاهرة: دار الهلال.
5. الحصري، ساطع.(1985). دفاع عن العروبة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
6. سلامة، موسى.(1946). اليوم والغد، ط2،القاهرة: دار سلامة موسى للنشر والتوزيع، القاهرة.
7. محمد عبده، محمد.(1987). الإسلام دين العلم والمدنية، القاهرة: دار سيناء للنشر والتوزيع.
8. الجابري، محمد عابد،(2009). العولمة والهوية الثقافية عشر أطروحات،ضمن:كتاب العولمة وأزمة الليبرالية الجديدة،الكتاب الثاني، ط1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث النشر.
9. عتريسي، طلال.(1998). العرب والعولمة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية، ط1، بيروت: مركز الدراسات الوحدة العربية.
10. هدى كريملي, « الثّقافة الرقمية ورهان الهويّة الدينية عند الشّباب المغربي », Insaniyat / إنسانيات [على الإنترنت2022 | 95 ,[, نشر في الإنترنت 31 octobre 2022, تاريخ الاطلاع 27 décembre 2022. URL : http://journals.openedition.org/insaniyat/26403 ; DOI : https://doi.org/10.4000/insaniyat.26403
11. محمد بن علي(2014). إشكالية استقبال المفاهيم الغربية في البيئة الثقافية العربية- مفهوم التنوير نموذجاً" أبعاد" على الانترنت2014، https://www.asjp.cerist.dz/en/article/34892
12. محمد بن علي. 2014. خطاب حقوق الإنسان في ظل أطروحات العولمة. المجلة العربية للعلوم السياسية،مج. 2014، ع. 41-42، ص ص. 168-185.https://search.emarefa.net/detail/BIM-409976